كتاب الرؤى في عودة مندائي إلى وطنه -1-

الرجوع إلى مدن الكنز ربا.. تفاصيل أول رواية صابئية

نعيم عبد مهلهل
دوسلدورف

((واحد يغرس وآخر يسقي، "لكن الله كان ينمي كورنثوس))

((يا هذا: إني أرى ما ترى، فهل ترى ما أرى، ام انت ما هذا الورى، تديم السرى، ولا تحمد صباح المسرى، أرى جملةً: أنوار الخالق عليها ساطعة، واخبار الخلق عنها قاطعة، وذلك إنها تُضحى مصدوقة بلسان التزويق وتسمى مكذوبة بلغات التحقيق، تمر في التهم كالريح، وتقف حرونا في مساكن التطويح، متوقعة لعلامات التصريح او غمارات التلويح... ومن اعاجيب نعتها، في مكانها ووقتها، أنها تتحرك على نفسها، وترى الزيادة في نقصها))

أبو حيان التوحيدي / الإشارات الإلهية

آخر رسالة وصلت لي من صديقي شاكر نوري المقيم في دبي ولا أدرى لماذا كتبها بخط سرياني، وكان عليّ أن استعين بصديق يتحدث السريانية ويكتب بها، والرسالة تقول: صديقي السومري نعيم، أمس أرسلت لك بالبريد المضمون مسودة روايتي الجديدة أرواح العراقيين. كتاب. فأعتني بقراءتك لها. وامضي انت بخيالك السردي لتكمل ضفتها الأخرى ولتكن رواية مشتركة بيننا.

بعد مرور أسبوع أتى الظرف الكبير الذي أرسله شاكر وهو يحمل أوراق بيض، الغريب ان المعتمد كان يمسك الظرف وأصابعه ترتجف، وحين شاهدني أنظر الى يديه، قالَ لي: لا شيء، هذا بسبب الاوزان الثقيلة الّتي أحملها واوزعها كلّ يوم.

ثم ضحك بصوت عال وقال: لأني أحمل وأوزع طرود آتية من كلّ قارات الأرض، فأنا مثل سيزيف الذي يحمل الأرض على اكتافه ويدور بها في شوارع مدينة زولنكن...غير أنّي كنت أعرف السبب، وقلتُ له: هذا؛ لأن الطرد الذي في يدك الان فيه أرْوَاح شعب كامل.ابتسم، فهو لا يعرف القصد، طلب مني توقيع الاستلام ومضى ولم تزل يداه ترتجفان.

فتحت الطرد، ومع أوّل ورقة شعرت برجفة وتعرق وتخيل المكان الذي هجرناه معا، ونحن إليه من خلال الروح المشتركة في إعادة كتابة الرؤى الّتي كانت فيما مضى اشعارا وطلاسما واساطير.

فمع القراءة الأولى، بدأت تؤسطرني رغبة خضراء من أجل فهم حقيقة ما جرى ويجري في عالم صار التكهن في خط سيره معجزة، والرؤى في باطنه مشقة. وقراءته تتطلب فهم أبجدية لغة مندثرة. وعلى الرغم من ذلك فهواجس الأمس تقول: العارف، لا يستسلم لخطيئة الظلام، مادام الوصول إلى مدن الفجر رغبته الدائمة. ولهذا يمضي الشاعر والفيلسوف وكاهن المعبد، ومدون اللوح وأمين مكتبة قصر الملك ومشرع القوانين وجلاس الانبياء من حواري ومتعبدين، يمضون إلى بيت الحقيقة؛ ليسكنوا فكرة واحدة: إن النور هو المعرفة كلّها، وسيكون رغيف الخبز هو القلم الذي ندوّن به هذه المعرفة.

وأظنُّ أن المسودة الّتي أرسلها إليّ صديقي شاكر نوري من دبي هي من حددت هاجس الكتابة لدي منذ ان شعرت بالرعشة المرتبكة لساعي البريد.

ومع أوّل صفحة، سكنت الرجفة يدي أكثر من تلك الاهتزازات الّتي صنعها الكتاب عندما كان طردا، فحالما فتحت هبت أطياف كلّها ترتدي ثياب بيض مثل ثياب ثوب الرسته الذي يرتديه الكاهن المندائي في طقوس التعميد.

لهذا تأسطرت نظرتي وكدت اتخيل أنني أنا وائل الذي جعله شاكر بطلا لحصته من أرْوَاح العراقيين، أما حصتي أنا والتي شعرت بها بعد القراءة الثالثة لمسودة صديقي.

سكنت إلى ما كتب، أنه يتعقب أثر الخطوة الروحية لأبناء وطنه الذين ينتمون الى محمد وعيسى وموسى ويحيى، لكنه توقف عند حفيد ليحيى بن زكريا، يتعقب خطوته لحظة وصوله إلى وطن لا يعرف منه سوى نصيحة وخرائط من ذاكرة ابيه، وأمكنة عليه ان يزورها ليعيد معرفة نفسه.

وحتى لا أسقط مع شاكر في متاهة البحث عن أرْوَاح ضائعة حاولت أن أضع امتدادا لرؤيته في هذه الحكاية، وأكتب الحكاية الموازاة، ولكن في ذات المشاعر، ما دمنا قررنا أن نحقق حلمنا الطفولي القديم أن نرتدي قميصي شهرزاد وشهريار ونكتب رواية مشتركة، كلّ واحد منا يدونها أو يتخيلها أو يسردها بطريقته الخاصة.وحتى أشعر أنني قادر أن افي باستحقاقي في المضي ما اتفقت به أنا وشاكر، أن نجعل الحكاية حكاية أرْوَاح وليس حكاية أسوار وقصور وعمارات وبيوت قصب حين تتهدم يمكن أن تستعاد بفاصلة من الزمن، ورصف الحجر ونصب الأبواب، لكن المشكلة هنا في تهدم الروح والذي اشرت فيها على من بدأ السرد أولا، وهو الذي صنع الابن ليتعقب في المكان الذي ولد فيه الاب والجد آثار الروح الّتي عاشت على أمل ان تكون كما رجال الادعية والاساطير الأولى.

ولكنه في النهاية لم يجد غير الجملة الأخيرة في قصيدة كافافيس المدينة والتي تقول: انها الخراب أينما حللت.

قضيت ليلة طويلة في قراءة ما أرسله لي شاكر نوري، وعلى أن اتعامل مع طلاسمه بحذر، وحتى لا أكون منقادا على هذا الهوس العجيب في جعل نصه عبارة عن عصرنة لخواطر دانتي والمعري، وجهده المؤلم في النبش عن الموت، وهواجسه في تراث الامة وشخوصها، أردتُ أن أخلصه من كآبته الغريبة واعيده الى أرْوَاح أخرى هي من نسل تلك الأرْوَاح الّتي أقلقه ليلها، وهي تتعذب في تنوع مصائرها وتفنّن كهنتها وملوكها وجنرالاتها في التحكم بمصائر السواد الأعظم من سكنة ضفاف ميزوبوتاميا.

لم يكن الأمر سهلا أن تهرب من قدرية الموت الّتي عرفها وائل ورأى صورتها واضحة في عودته إلى المكان الذي تناسلت منه أوردته دمه، وقبل ذلك في ماسيوتشيت لم يكن يعرف ذلك ابدا، وأظنُّ أن ابيه المندائي أرادَه بفيزيائية ما امتلك وبرع وابدع أرادَه ليعرف ان الفيزياء تعني تراتيل التعميد وفي النهاية سيجد في مراسيم الموت شيئا من المفقود في تساؤلاتنا الّتي لم تعمم بعدد على المفكرين والمثقفين من أبناء البلد وهم يرون أشلاء ضحايا المفخخات وخنادق الحروب والنار القادمة من قاعات المكتبة الوطنية والمتحف الوطني ونعوش الشهداء، فيسألون وقد طرق الموت أغلب أبواب بيوت العراقيين: لماذا جرى، ويجري كلّ هذا؟

رؤى الحكاية

نعم. عليّ أن اصيغ رؤى الحكاية كما أريدها أنا وليس كما يريدها صديقي، لقد انتهت مهمته في اللحظة الّتي فسرت فيها سبب ارتعاش أصابع ساعي البريد الألماني وهو يسلمني الأرْوَاح الّتي كانت تهتز داخل المظروف بحركة لاشعورية وكأنها في طقس حلقة ذكر نبوية، وحين انتقلت الكهرباء من أصابع الساعي الى أصابعي أدركت لماذا تلك الأرْوَاح الّتي عاشت في سرمدية الخوف واللذة تؤثر حتّى على الأرْوَاح الّتي تنتمي إلى غير أمة.

وأمام ساعي البريد شعرت بقوة تأثير ما أرسله إليّ شاكر، فتذكرت قولا لغوته الذي لم يبعد بيته عن بيتي سوى مئتي ميل وهو يقول: الروح الشرقية ترى ما قبلها وما بعدها، بفضل رجل اسمه محمد.

وأظنُّ أن شاكراً رأى ما بعد، وعليّ أنا أن أرى ما قبل.

أعود إلى ما قبل، إلى آدم الذي يجمله المتشائمون سبب كلّ ما يحدث؛ لأنه لم يمنع قابيل عن شج رأس أخيه هابيل بحجر وقتله، ويقال: إن القتل بدا في أرض ميزوبوتاميا، ولم يزل قائم في ميزوبوتاميا، ما أرسله لي شاكر في أرْوَاح الاخرين إنّما هو قراءة فيزيائية وتعميديه وقدرية وجنونية لهذا الزهق اليومي الممنهج لأرْوَاح المئات من العراقيين، من يذبحهم داعش ويفتي ظلما بقتلهم، ومن تقتله عصابات ملثمة تهاجم الاحياء السكنية بسيارات دفع رباعي، ومن تقتله الطائرات الأمريكية أو مدافع البشمرجة.الكلّ يموت، والكلّ يملك قناعته وسببه ومبرره لصناعة هذا الموت.لقد ابتدأ زهق روح بريئة بضربة حجر وعلى أرض شنعار، ولم يزل يمضي مع تلك البداية، ولكن الحجر تغير إلى رصاصة وقذيفة مدفع وكاتم صوت وصاروخ موجه من طائرة مسيرة.أظنُّ وقبل العودة إلى أمكنة تخيل وائل القادم من غربته ومنفى ابيه أن الاشتراك في سرد حكاية ليس من الضرورة أن يكتب الأوّل ويكمل الثاني ما ابتدأه الأوّل، الاختلاف والسير المعاكس ربما يأتي بفهم كامل لفكرة الكتاب المشترك.وعليه سأتحدث عن أرْوَاح لاتشبه أرْوَاح صديقي وأن كان المؤثر الحقيقي آت من الظرف الذي حمل تلك الأرْوَاح من مساء بحري رطوبته الشرجية قاتلة إلى صباح الماني نسائمه تحرك في الوردة خواطر غرام طفولة وصبا، وخيال مداعبة الأعضاء الانثوية في الدمى، يوم كان فقراء اور يشمون ليالي الغرام الثمل من غرف قصور الأمراء في ليل اور، فلا يستطيعوا مجاراة طقوس الاباحة اللذيذة تلك سوى بصنع دمى طينية لها أعضاء انثوية بارزة ويمارسوا ما كنا نسميه في طفولتنا لعبة (بيت ابيتات) أي نقيم طقوس اعراس طفولية بريئة وتصحبها بعض المداعبات الجنسية فوق السطوح وأغلبها تقام في ختلة ما، أو في قن الدجاج.

ما يشبه البحث

أظنُّ أنّني سأذهب في تلك العودة إلى ما يشبه البحث، فقط لأبقي رابط أرْوَاحي بأرْوَاح شاكر قائمة، وفي النهاية لا أعرف أن كنت وفقت لأكتب نصا روائيا أم أن المتن ضاع بين السرد والبحث.

وعلى الرغم من هذا فإني سأكتب عن شيء يرتبط بمثلوجيا الأرْوَاح والتي قد تشبه ولا تشبه تلك الأرْوَاح المظلة بالخوف والحذر والنشوة الّتي سكنت وائل حين يأتي إلى بلد ابيه.ليبحث عنها وقد يصادفها او لا يصادفها، ولكنه في النهاية (يخضع) لهيمنة ما يريده شاكر نوري الذي نصب نفسه البديل الشرعي للبحث عن حقيقة ما يجري في هذه الفوضى الإنسانية والميثولوجية والتقنية لشعب قدر عليه في كلّ مرة أن يعود إلى كتب التراث ومنابر عاشوراء وانف الجاحظ ليعرف ما الذي يحدث بالضبط.

أنا (يا شاكر) سأغيب عن أرْوَاحك وأذهب إلى أرْوَاحي، وقد أعود إليك في بعض محطات الشوق لما هو مدون في نصك، وقرأته ثلاث مرات، فلم أحصل سوى على أني ارتعش في كلّ ساعة قرأت فيها النص، فيما كانت رعشة ساعي البريد الألماني لدقيقة فقط وهو يسلمني مظروفك.

وها أنا مع عالمي الخاص وعليّ أن اتركك أنت وبطل روايتك وائل، اتركك مع دانتي وسعير ناره، مع المصابيح الغيبية الّتي كانت تسكن شوارع أجفان شاعرك الاعمى المعري.اتركك مع غضبك وتعبك وأنت تترك ولدك كيان واخوته في حسرة إلى نزهة على شاطئ جميرة دبي؛ لتذهب إلى كتب المتصوفة وعلماء قروننا الوسطى؛ لترى تأثر الموت واخيلته وطقوسه فتعيدها إلى هذا الحاضر لترى المتطابق منها والغير متطابق.أردتُ أن اهرب من تشاؤمك وحزنك وقناعتك بأمر الأمر سيبقى مجرد تكرار وتحديث لطريقة الموت ونهجه.

ربما أنا سأكون أكثر تفاؤلا منك، فلا أصنع الخوف والقلق والحذر في قلب وائل؛ لأني سأعيد قراءة الأمر الذي اتفقنا على اتمامه في كتاب، اعيده من زاوية نظر (شروكية) لواحد أرشفة حياة المعدان حياته، فشعر أن الجاموس ورعاته في أصلهم السومري إنّما هي من بعض هجرات بعيدة لأرْوَاح كانت قد صعدت مع نوح في السفينة، وربما وصلت إلى أوسلو وطنجة ونيوزلندا ودلهي ومسقط وزنجبار ثم عادت إلى المكان الأوّل.عادت لتراجع سبب ما كان ويكون، فأنتجت لنا حروب السلالات ورحلة إبراهيم وصبر أيوب وحوت يونس، وتلك الطلاسم العبرية الّتي تركها العزير على بوابة مزاره، قرب ضفاف دجلة في الطريق الواصل بين العمارة وشجرة النبي ادم في القرنة.هذه المسافة الّتي هي حوالي 50ميلا.كانت مسافة عجيبة كتبة مدونة النعوش والأرْوَاح الّتي زهقت في معرق شرق دجلة.تخيل يا صاحبي (شاكر) أنت تتحدث عن كوميديا مندائية ـ الهية لقدر بلاد، وأنا عليّ أن أتخيل كوميديا نعوش الجنود وهم أيضاً أرْوَاح ترتدي بدلات خاكية ومرقطة فحملتهم السيارات اليابانية التويوتا إلى أهلهم في كلّ مناطق العراق من خنادق شقية بامتداد المسافة ما بين ضريح النبي اليهودي وشجرة أبو البشر آدم.خمسون ميلا فقط، وكلّ اسفلت الطريق الذي بين ناحية العزير وشجرة النبي الأوّل تعاني من مطبات تزعج أصحاب النعوش المحمولة على السيارات والذاهبين بمأموريات الشهادة والموت إلى بيوتهم في عموم خارطة ميزوبوتاميا.وعلى الرغم من هذا فإن ما في جعبتي من ذكريات عن المكان تكفي لأكون قارئا ومتمما للطقوس الجنائزية الّتي أرادَ بها صديقي شاكر أن يوصل ما تشعر به أرْوَاح أبناء وطني.سأتخيل ذكرياتي يوم كنت عريفا في سرية مشاة على ضفاف نهر دجلة وقريبا من الاخوار وفي هذا المكان، أتذكر رغبتي يوم أردتُ لحياتي هروبا من هذا الجحيم الذي تخيلت أني سأغرق في مياهه الضحلة كما تغرق الأسماك بموت تنفجر اكياسها الهوائية من شدة انفجار قذائف المدفعية في الماء، لأصبح تحت رحمة قدرية الموت الّتي تحدثت عنه كتب السماء والتراث، واتذكر كيف كان رفيق لي في ذات الفصيل، حين كان يجادل جنديا من الطائفة المندائية فيقول له: موتنا مرهون بأسئلة منكر ونكير، فيرد عليه زهرون المندائي: ونحن يرتهن بملائكة الضوء وأولهم زيوا الذي له جناحين طرف منهما يلامس شجرة السدر وآخر يلامس بوابات الجنة.

قال رفيقي: وهل عندكم في جنتكم ما يفسره ابن كثير في قول: إِنَّ الرَّجُلَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ لَيُعَانِقُ الْحَوْرَاءَ سَبْعِينَ سَنَةً، لَا يَمَلُّهَا وَلَا تَمَلُّهُ، كُلَّمَا أَتَاهَا وَجَدَهَا بِكْرًا، وَكُلَّمَا رَجَعَ إِلَيْهَا عَادَتْ إِلَيْهِ شَهْوَتُهُ؛ فَيُجَامِعُهَا بِقُوَّةِ سَبْعِينَ رَجُلًا، لَا يَكُونُ بَيْنَهُمَا مَنِيٌّ؛ يَأْتِي مِنْ غَيْرِ مَنِيٍّ مِنْهُ وَلَا مِنْهَا.

قالَ المَندائي: اَلذي أعرفه أن الروح المؤمنة ستسبح هناك في الفضاء البعيد، وحتما ستنال ما تحدث عنه ابن كثيركم هذا.انتفض جندي آخر من أهلي عفك وقال: وهل ستستخف بعلمائنا وآرائهم.

قال: لا لقد علمني نزار قباني ان الحب هو الجنة.

احتساء الشاي

ربع ساعة من الضحك واحتساء الشاي، ليغادرني زهرون لقضاء حاجة خارج الملجأ، فأتت إليه شظية مدفع ثقيل اتية من أطراف الاحواز لتنحر رقبته ويموت.

حزنا ثلاثة أيام، ثم ادرجناه في دفاتر الذكرى. ولو كنت أعرف وائل القادم من قرى الهنود الحمر وأجفان نيكول كيدمان وعبوس وجه بوش الاب لأخبرته أن زهرون مدفونا في مقبرة الصابئة في الأطراف الشرقية لمدينة الناصرية وأن عليه ان يزوره ليكتشف ما تمنى عليه اباه أن يكتشفه.

أعود لأرْوَاح كانت غافية في مظروف رسالة طوال مسافة الشحن الجوي من دبي إلى مدينة زولنكن الألمانية، فربما مع تلك العودة سأكتشف ما دفع صديقي ليبعث روح عالم مندائي من جديد ويجعلها الحافز الروحي للتفكير بمصائر من يعيشوا الان يوما مأزوما ومحاطا بأرْوَاح شريرة من اللصوص وانتحاري الاحزمة الناسفة وغرباء أتوا من كلّ الدنيا؛ ليشكلوا تحالفا اميا من أجل اسقاط التماثيل وأحراق الجداريات وأشياء بدأت على شكل كذبة من فم كولن باول تحدث عنها بحماس مخادع في قاعة مجلس الامن وعلى الرغم من هذا تلك الكذبة لن تشفع لتجمل وجه الجنرال الذي رآه شعبه لأخر مرة في منطقة الاعظمية في بغداد وقد صعد على بدن سيارته المرسيدس، يلوح بتحية يعرف جيدا أن مصيرها سيكون حبل المشنقة.ذهب الرئيس إلى مخبئه، وذهبت أرْوَاح العراقيين إلى قدرها الجديد والذي ابتدأ بزغاريد على أسطح المنازل لم يستطع تفسيرها من قبل جنود المارينز إلا من خلال مترجم، وانتهت بموت غريب في اشكاليته اطلق عليه أهل الحلة (موت طشت الخردة ؟) وهو وأحد من أغرب النتائج الّتي يمكن أن يؤدي بها الموت عندما يتحول الجسد البشري إلى مجرد أعضاء متناثرة ومتنوعة كما بضاعة الخردة فروش.ثمة أعضاء غادرت الجسد بفضل حنان الديناميت والسيارة المفخخة والانتحاري الذي يتخيل أن جسده عندما يتبعثر إلى أشلاء ويتمزق انه سيتناول غداءه مع النبي في الجنة، وكذلك بفضل سهو مردوخ كبير الهة بابل عن عباده.

تطايرت أجساد الناس من شدة الانفجار في واحد من أسواق مدينة الحلة ثم جمعوها في طشت وسيدفنونها بفتوى بمقبرة خارج المدينة. أعضاء تعود لعشرات من البشر الفانيين من دون رغبة وقناعة أن العمر انتهى.

لكن كابول قررت ذلك وثمة فرمان وقعه رجل بلحية رمادية قال: إن بابل بلد ينبغي أن لا تطول سعادته وأن لا يفاخر أنه هزم الإسكندر بالهيضة وأن نبوخذ نصر أسكن نصف أورشليم في حي الصفيح وان الحلة بلدة النخلة والكحلة وكاتبة جيدة لقصيدة حلم جلفية تهادت بحنان شهواني ومضت تعانق ظلّ الأسد الجاثم فوق رجل مسترخ لسيف الإمبراطور ومستغيثا برأفة الآلهة وسيارات الإسعاف.

يتبع

شاكر نوري

أبو حيان التوحيدي

إنتفاضة البصرة بداية الثورة

لم يكن متوقعا بالنسبة للكثير من المراقبين للشأن العراقي بمن فيهم السياسيون العراقيون بإن مظاهرات البصرة التي انطلقت في مطلع تموز الماضي احتجاجاً على انعدام الخدمات الاساسية، قد تتحول إلى انتفاضة شعبية عارمة تسقط المشروع الطائفي للإحزاب، وتضرم النيران في مكاتبها ومقارها المتفشية في البصرة كداء السرطان، وتطيح بآمال رئيس الوزراء الحالي في حصوله على ولاية ثانية، وتعيد بناء التحالفات بين الكتل السياسية المتصارعة على كرسي الزعامة.

وتؤكد واقعة حرق مقرات الاحزاب من قبل الآف المحتجين، على غضب الشعب العراقي على هذه الطبقة السياسية واحزابها الطائفية التي تسببت بخراب العراق طوال الخمس عشرة سنة الماضية، وهو الغضب الذي لم يكن وليد اللحظة، لقد عبر العراقيون في اكثر من مناسبة عن رفضهم وعدم رضاهم عن هذه الاحزاب السياسية، فمنذ عام 2011 والمظاهرات المنددة بفساد الطبقة السياسية والرافضة للنظام السياسي المبني على اساس المحاصصة الطائفية مستمرة وتتنامى، كما ان غالبية الشعب العراقي رفض المشاركة في الانتخابات النيابية الاخيرة التي جرت في 12 مايس، إذ لم تصل نسبة المشاركة آنذاك الى 18 بالمئة وكانت غالبية هذه النسبة من الجمهور الحزبي والمنتفعين وبعض بائعي الذمم.

لكن الطبقة السياسية لاتريد الاعتراف بانها فقدت شعبيتها وصارت منبوذه من قبل الشعب العراقي، ولذلك تسعى، دائما، إلى تكميم الافواه وقمع الاحتجاجات بشتى الوسائل المتاحة، فقد استخدمت ضد التظاهرات، منذ انطلاقها في تموز الماضي، الغاز المسيل للدموع والهراوات والرصاص الحي فاسقطت المئات من صفوف المتظاهرين بين قتلى وجرحى. كما شنت حرب اعلامية ضد الاصوات المعارضة واتهمتهم بالجهلة والمخربين والبعثيين والمندسين.

مشكلة عشاق السلطة انهم لايتعظون من اخطاء سابقيهم الذين تسببوا بحرق بلادهم وقتل وتهجير شعوبهم حين مارسوا سياسة القمع ضد مواطنيهم، فحرق سوريا وقتل وتهجير الملايين من اهلها، كما ليبيا واليمن او الموصل وباقي محافظات العراق الغربية، كان بسبب رفض تلك الحكومات للحقوق والحريات العامة للمواطنين في حق التظاهر والتعبير عن الرأي، وتبني تلك الحكومات سياسة القمع واستخدام القوة المفرطة ضد المتظاهرين المطالبين بحقوقهم العامة.

ولقد تعرض متظاهرو البصرة إلى مجزرة تندرج في سجل الجرائم ضد الإنسانية، لقد سقط في اقل من اسبوع واحد، خمسة عشر شاباً شهداءً وجُرح مئات آخرين، بعد تعرضهم لإطلاق نارٍ من قبل القوات الامنية المكلفة بقمع وإنهاء مظاهرات البصرة، وقد بلغ عدد المتظاهرين الذين قتلوا على يد القوات الأمنية وعناصر أحزاب السلطة، الثلاثين متظاهراً، ذلك منذ انطلاق المظاهرات في مطلع تموز الماضي والتي بدأت في البصرة وتوسعت إلى عموم محافظات العراق، احتجاجاً على استشراء الفساد وانعدام الخدمات الأساسية كالماء والكهرباء وفرص العمل. وكانت انتفاضة الشارع البصري الصادمة لاحزاب السلطة والمراقبين، امراً محتوماً، فقد ترسخت لدى المواطن العراقي قناعة تامة مفادها ان لا وطن مع هذه الطبقة السياسية وان التغيير او الاصلاح من خلال الانتخابات امراً مستحيلاً، فالانتخابات في العراق دائماً ما تأتي نتائجها مخالفة لارادة الشعب بنسبة 99 بالمئة. وانتفاضة البصرة بداية الثورة .

طه ياسين
بغداد

قراءة المقتل الحسيني في سجن الإستخبارات

في أواخر التسعينات كنت موقوفاً في سجن إستخبارات كربلاء بسبب تهمة (ترويج الكتب الدينية الطائفية) وقد حلّ علينا صباح العاشر من محرم الحرام وكنت أرى الحزن بادياً على وجوه المعتقلين الذين أغلبهم بل كلهم من الأبرياء وهم من محبي الشعائر الحسينية وكانوا يتمنون أن يكونوا في تلك اللحظة خارج السجن ليشاركوا ويساهموا في إحياء العزاءات والمجالس الحسينية التي هي جزء من حياتهم وتاريخهم وثقافتهم التي تربوا عليها ..وراح البعض يتساءل عن وجود راديو عند أحد السجناء لكي يسمعوا المقتل الحسيني من إذاعة بغداد التي كانت – وحسب تقليد قديم منذ العهد الملكي تبث قصية المقتل الحسيني من الإذاعة الرسمية كل صباح يوم 10 محرم بصوت المرحوم القاريء الشيخ عبد الزهراء الكعبي ..ولكن عناصر الإستخبارات كانوا يعاقبون أشد العقوبة كل من وجدوا بحوزته راديو أو مسجلاً داخل السجن ..وفي تلك اللحظة خطرت في بالي فكرة أن أقرأ المقتل الحسيني بصوتي داخل السجن ..وكنت حافظاً جيداً للمقتل الحسيني منذ سنوات عمري الأولى ولطالما قرأت المقتل لوالدي وعمومتي – رحمهم الله – في مجالسهم العائلية الخاصة في بيتنا ..

ففرشت سجادة الصلاة في زاوية من زوايا السجن وصليت ركعتين قربة لوجه الله تعالى ثم جلستُ على سجادتي ووجهي إلى الحائط وشرعتُ بقراءة المقتل دون أن أخبر أحداً بنيتي حتى من الذين كانوا يجلسون بقربي ..وأثناء القراءة شعرت بأن الأصوات بدأت تنخفض بين السجناء ثم عمّ السكون في القاعة وكأن على رؤوسهم الطير وأخذوا ينصتون لقراءتي وهم في خوف وترقب مما سيحصل لي ..!

وكلما رفعت صوتي بالقراءة شعرت ببعض السجناء يرتفع نشيجهم معي ويتفاعلون مع سير الأحداث في المقتل ..ولما وصلت إلى مصيبة علي الأكبر والقاسم سمعت البكاء من خلفي واضحاً فأرتفعت حماستي معهم وزدت من حرارة القراءة (والنعي) ولما قرأت قصة مقتل سيدنا العباس سمعت صراخ السجناء يرتفع وأصواتهم تعلوا بنداء : (واعباساه وياسيداه) .. وبعدها بلحظات سمعت صوت أحد حراس السجن وهو يقول : (يمعودين علكيفكم ..لاتعمّون علينا ..الله يستر عليكم) وكنت ألح في صوته نبرة تعاطف وحزن معنا ..!

وفي آخر لحظات قراءتي للمقتل ضّجت القاعة الكبيرة – التي كان فيها أكثر من 200 معتقل – ضجت بالبكاء والصراخ (ياحسين ..يامظلوم) وبعضهم عمد إلى لطم وجهه والآخر راح يضرب على صدره ورأسه وبعضهم مزق ملابسه ...فجاءني سجين كربلائي معروف بتدينه وهو محل إحترام الجميع داخل السجن وعانقني وهو يبكي ثم طلب مني التوقف حفاظاً على أرواح السجناء وحفاظاً على نفسي ..فأنهيت المقتل وعندما أستدرت إلى الخلف وأسندت ظهري للحائط ذهلت عندما رأيت السجناء وقد جلسوا على هيئة المجالس الحسينية صفوفاً متساوية وقد غرقت عيونهم بالدموع وبعضهم قد أغمي عليه من البكاء ..وأكثر المناظر التي لا أنساها رأيت حراس السجن وقد تجمعوا خلف قضبان السجن وجلسوا وهم يبكون معنا بكاء عالياً ونسوا بأنهم حراس في أحد معتقلات النظام .. وبعدها بلحظات جاء الحراس وهم يحملون صواني التمن والقيمة التي جلبوها من أحد المواكب الحسينية القريبة وفتحوا لنا باب السجن وأجلسونا في ممرات المعتقل وأكلنا جميعاً حتى شبعنا ذلك اليوم ..!!

هذه القصة مازال يتذكرها من كان معنا في ذلك اليوم من السجناء ومن الحراس على حد سواء .. ولطالما أستوقفني البعض منهم في الطريق ويسألني بلهفة : ألست أنت من قرأ لنا المقتل الحسيني داخل سجن الإستخبارات ..؟ فأقول له نعم ..ولعلها اللحظة الوحيدة في حياتي التي أنا متأكد بأني فعلتها صادقاً مخلصاً مع نفسي دون شك أو ريب أو رياء..! رحم الله الذين كانوا معنا في ذلك اليوم الذي لاينسى ..وحفظ الله الباقين منهم ..

والسلام على الحسين وعلى علي بن الحسين وعلى أولاد الحسين وعلى أصحاب الحسين وعلى خدام الحسين ..

عبدالهادي البابي
كربلاء